

— وهل ناموا .. ودخلت ؟

● حدث ذلك في وقت لاحق . لم يعد البكاء لأثقا بمن هم في مثل سني . كنت أختبر قدرتي على مواجهة الطفل الذي تركته هنا في السابعة من العمر . صار الشوك أطول مني ومنه فضعنا معا . لم نعد نعرف أيننا سيعثر على الآخر . ولكنني لم أر ، من قبل ، عصافير يمثل هذه الالوان الخضراء والزرقاء . جرحتني شوكة حادة ففرحت لأنها نقطة الوصول . كنت غارقا في الاحساس بالحج ، ولكن لم أجد الكعبة . من اعطى الارض هذه الوحشية الا الهجر ؟ . كبرت اشجار المصبار التي رمى الانجليز ابي فيها وقطعوها عليه بالفؤوس ، فأخرج الطبيب من جلده مائة شوكة غير التي اخفت في اللحم . من اكثر حظا يا ابي ؟ ذلك الذي أكل الشوك وواصل تربية الأرض ، ام ذلك الذي جاء الى الأرض فلم يجد الا الشوك ؟ . وهذا الراعي الصغير الذي ادهشته تحيتي : من أين أنت ؟ من اليمين ؟ أخبرته انني من هذه القرية ، فظنني رومانيا لانه يعتقد أن هذه الاطلال آثار قرية رومانية . « واذا رحلنا الى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعودين عليه ، مثل الافاعي الكبيرة ، سأستخدم اهل البلاد — قبل أن اعطيهم اعمالا في البلدان المجاورة — ليقضوا على مثل هذه الحيوانات وسأعطي جوائز كبيرة لمن يأتي بجلد الافاعي وبيضها » هكذا قال هرتسل .. ولعل هذا الراعي القادم من اليمين يحسبني أبحث عن أفعى .

واصلت طريق الشوك والحجارة القديمة بحثا عن الطفل الذي تركته هنا . لم أجد شجرة التوت التي كان ينسلقها ولا الساحة التي كان يضيع فيها . لا شيء .. لا شيء الا هيكل كنيسة ضاع منها الجرس . دخلت الكنيسة فكانت الإبثار تجترني بكسل . بعد ربع قرن ستدق اجراس الكنائس اعلانا عن موت العدالة في فلسطين بعدما انفجرت مأساة كفربرعم . تأخرت .. تأخرت كثيرا . وليس لهذه الكنيسة جرس يعلن شيئا . ما عاد بوسعي ان ارضى بالاطلال تجسيدا للحلم ، لان انتمايي لم يعد غريزيا .. صار اكثر وعيا ، وصار مضمون الحلم — لا انفجاره — هو قضيتي .

— لم تقل لي لماذا خرجتم . لماذا لم تصلوا الى هذه القناعات الا بعد هذه الخسارة ؟

● ابي يقول انهم لم يفهموا ماذا يحدث . كانت معركة عابرة مضمونة النتيجة كما تصوروا . كان الخروج من القرى تخليصا للجسد من الموت دون أن يقابله معنى التنازل عن الارض . لم تكن فكرة الوطن تحتاج — على ما يبدو — الى الاجتهاد الفكري والتعبئة الجماعية والتخطيط . لم يكن المنزل والكرم والمحراث مسلحين ، ولم تكن الدعوة الى البقاء — على ما يبدو — جزءا من المعركة لأنها لم تكن محددة القوى والابعاد . هل يعني ذلك أن الحس الوطني كان رديئا ؟ . كلا . بدليل ان الفلاحين كانوا يتطوعون للجهاد من تلقاء انفسهم وبدوافع وطنية خالصة . ولكن التنظيم كان هو الرديء . وكان الانطباع الشائع — أو الخديعة اذا شئت — يقول ان الخروج مؤقت ، لايام معدودة . فلماذا يموت الاطفال والشيوخ والنساء بهذا الشكل المجاني اذا كان الخروج المؤقت يضمن سلامتهم ويضمن النصر معا ؟ . ان الاسرائيليين يأخذون من خروج العرب ذريعة للادعاء بغياب حس الانتماء الى الوطن والافتقار الى الجدارة بوطن تخلوا عنه بسهولة . والاسرائيليون لا يخدعون الا انفسهم حين يصدقون ادعاءهم ، فقد قابلوا الانطباع الشائع بأن الخروج مؤقت بينادقهم وخناجرهم التي أضافت سببا قويا لدفع العرب الى الخروج . ووضعوا امامهم الاختيار التالي : اما الموت ، واما النزوح لعدة ايام . وان تفرغ فلسطين من العرب لم يكن اجراء طارئا استدعته ظروف الحرب ، بل كان خطة ثابتة في استراتيجيا العمل الصهيوني قبل انشاء اسرائيل ، وخلال الحرب ، وبعدها . وقد نفذوها بالعنف المسلح ، ووجدوا فتوى دينية لها في مثال يهوشع بن نون وفي ان « يوم الرب هو يوم ارباب » . ووجدوا فتوى سياسية لها في امثلة تطبيقاتهم ،